إذن: الجوارح خادمة مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف فى الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل:

﴿.. لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصى رغمًا عنا ؛ لأننا كنا مُسخَّرين لكم فى الدنيا ، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿.. وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد [1] وإنكار الرسول ﷺ والرسالة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا [2] وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) الملحد: العادل المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه . يقال: قد ألحد فى الدين أى: حاد عنه . والإلحاد الظلم فى الحرم، وهو أيضاً الشك فى الله ، والميل عن الإيمان به . [انظر: لسان العرب - مادة لحد] .

(٢) عوج: مال وانحنى ولم يكن معتدلاً . وعاج عوجاً (بفتح العين والواو) ، وعوجاً (بكسر العين وفتح الواو) . قال تعالى: ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ..﴿٢٨﴾﴾ [الزمر] أى: قرآناً مستقيماً فى مبادئه وأحكامه . وقال تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ..﴿١٩﴾﴾ [هود] أى: أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله يريدون سبيل الله معوجة . [القاموس القويم] .

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان.

وبذلك تعدَّوا فى الجريمة ، فبعد أن أجرموا فى ذواتهم ؛ أرادوا لغيرهم أن يُجرم.

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصّاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله ﷺ ، ولكن أعماهم الطمع فى السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله فى كتبهم ، وهم بذلك إنما صدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجَّة.

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾ [آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المُعوجَّ من أمور المنهج. والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون فى القيم ، وهى ما قد خفى فى المعنويات ، فتقول: أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا [1] (١) ﴾ [الكهف]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله سبحانه :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (١٩) ﴾ [هود]

---

(١) ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ : أى : أنه قرآن مستقيم سليم فى أحكامه ومبادئه ولا اعوجاج فيه. [القاموس القويم] بتصرف.

أما فى الأمور المحسة فلا يقال: «عوَج» ، بل يقال: «عَوَج» ، فأنت إذا رأيت شيئاً معوجاً فى الأمور المحسة تقول: عَوَج [1] .

لكننا نقرأ في القرآن قول الحق سبحانه:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا [2] (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا [3] (١٠٧) ﴾ [طه]

وقد أوردها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآنى ؛ لأن هناك عوجاً حسياً يحسه الإنسان ، مثلما يسير الإنسان فى الصحراء ؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينبسط مرة أخرى ، ثم يقف فى الطريق جبل ، ثم ينزل إلى واد ، وأى إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً .

أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية ، فقد تظن أنها أرض مستوية ، ولكنها ليست كذلك ؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه ، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء ، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه ، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء ، والماء - كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسطوحة .

---

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عوج) : «هو بفتح العين مختص بكل شخص مرئى كالأجسام، وبالكسر بما ليس بمرئى كالرأى والقول، وقيل: الكسر يقال فيهما معاً، والأول أكثر».

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ : القاع : الأرض المستوية المنخفضة عما حولها. والصفصف: الأرض الملساء المستوية. أى: أن الجبال تزول، فلا يكون لها أثر. [القاموس القويم].

وذكر ابن كثير فى تفسيره أن الله تعالى يُذهب الجبال عن أماكنها ويمحقها ويُسيرها تسييراً، فيجعلها - أى: الأرض - قاعاً صفصفاً، أى: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوى من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى استواء الأرض يومئذ، وقيل: الذى لا نبات فيه والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. قاله ابن عباس وعكرمة وآخرون. (ابن كثير ٣/ ١٦٥).

(٣) ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] أى: أنها ملساء مستوية، لا انحراف فيها يمنة ولا يسرة، فلا ميل فيها مطلقاً ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع. [القاموس القويم].

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتى بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التى قد لا تراها العين المجردة.

وفى يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه فى قوله :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ [1] لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ [2] لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) ﴾ [طه]

هم - إذن - يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، فى ذلة وصَغَار [3] ولا ينطقون إلا همساً.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾ [هود]

والسبب فى صَدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِّروا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون فى الأرض ؛ لأن مجىء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى: يوم القيامة الذى يرون فيه هذه الأحوال والأهوال فيستجيبون مسارعين إلى الداعى حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم. وقال قتادة: لا عوج له أى: لا يميلون عنه وخشعت: سكنت. [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٦٥].

(٢) خشعت الأصوات: خفتت وهدأت ، كناية عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة. [القاموس القويم - ١٩٤/١]

(٣) الصغار (بفتح الصاد المشددة) : الخضوع فى ذل ومهانة. [لسان العرب - مادة : صغر]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ[1] فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أى : برهنت على أنه ممتنع عن الأمر وغير قادر عليه.

وقد تجلَّى الإعجاز - على سبيل المثال - فى عجز هؤلاء الذين أنكروا أن القرآن معجزة أن يأتى بآية من مثله.

والمعجز فى الأرض هو من لا تقدر عليه.

ويبيِّن لنا الحق سبحانه فى هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يُعجزون الله فى الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من أمم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من أخذته الريح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولى أو نصير من دون الله ؛ لأن الولى هو القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره.

فإذا قَرُب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نضح عليك من مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففى قوته سياج لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضح عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ، وإن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلو موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته.

---

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه ، فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) ﴾ [الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم ، فلن يفلتوا . وقال تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٥٧) ﴾ [النور] . [القاموس القويم - ٢ / ٧]

والولى هو النصير أيضاً ؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتى لك القريب منك .

وهؤلاء الذين يصدُّون عن سبيل الله لن يجدوا ولياً ولا نصيراً فى الآخرة – وإن وجدوه فى الدنيا – لأن كل إنسان فى الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ [1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ [2] عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعجزون الله فى الأرض ، ولا يجدون الولى أو النصير فى الآخرة ، بل :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٠) ﴾ [هود]

---

(١) تذهل : تغفل عما ترضعه ، كناية عن شدة الهول والفزع . والذهول عن الشيء : تركه عن عمد أو الغفلة عنه ونسيانه لشغل . [لسان العرب – مادة : ذهل] .

(٢) جاز : اسم فاعل من الفعل جزى . وجزى عنه : قضى الحق نيابة عنه أو كفى بدلاً منه فى أمر . وقال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً .. (٤٨) ﴾ [البقرة] .
أى : لا تغنى ولا تقضى . والمراد بقوله تعالى : ﴿ واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً .. (٣٣) ﴾ [لقمان] . أى : أن كلاً منهما غير دافع عن الآخر شيئاً من العذاب [القاموس القويم] بتصرف .

ونحن نفهم الضِّعْفَ على أنه الشيء يصير مرتين ، ونظن أن في ذلك قوة ، ونقول : لا ؛ لأن الذي يأتي ليسند الشيء الأول ويشفع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيف.

إذن : فالمُضَاعفة هي التي تظهر ضعف الشيء الذي يحتاج إلى ما يدعمه.

ومُضَاعفة العذاب أمر منطقى لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم.

وقول الحق سبحانه :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٠) ﴾ [هود]

لا يتناقض مع قوله الحق:

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ[1] .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام]

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد ، بل لهم وزْران: وزر الضلال في ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم.

وهناك آية تقول:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا[2] (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ .. (٦٩) ﴾ [الفرقان]

أي : أن مَنْ يفعل ذلك يَلْقَ مضاعفة للعذاب .. لماذا ؟

---

(١) وزر الشيء يزره وزراً: حمله. ويأتي في الأحمال الثقيلة ، ويستعار للذنوب. والمراد بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام]. أي : لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى. [القاموس القويم].

(٢) ومن يفعل ذلك يلق أثاماً: أي : أن من يفعل تلك الذنوب والآثام ينل جزاء إثمه ويعاقب عليه. والإثم: فعْل ما نهى الله تعالى عنه. [القاموس القويم].

لأنه كان أسوة لغيره فى أن يرتكب نفس الجرم.

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجُرْم لحظةَ العقاب ، مثلما يقول سبحانه فى الزنا:

﴿ .. وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ (1) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ② ﴾ [النور]

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففى ذلك تحذير من ارتكاب الجُرْم ، وحدّ من وقوع الجرائم.

وهنا في الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صَدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين:

أولاهما: ضلالهم.

والثانية: إضلالهم لغيرهم.

ولذلك تجد بعضاً من الذين أضلُّوا يقولون يوم القيامة:

﴿ .. رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ㉙ ﴾ [فصلت]

ويقولون أيضاً:

﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا (2) فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ㊼ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ㊽ ﴾ [الأحزاب]

---

(1) طائفة: جماعة أو فرقة من الناس. ذهب الإمام مالك إلى أن الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفى شهادة فى الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً. وبه قال الشافعى وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصرى: عشرة. انظر [ابن كثير (٣/ ٢٦٢)].

(2) السادات والكبراء: قال طاوس: السادات هم أشراف القوم وعظماؤهم. والكبراء: هم العلماء. قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥١٩) وعزاه لابن أبى حاتم.

إذن: فالدعوة إلى الانحراف إضلال، وعمل الشيء بالانحراف إضلال؛ لأنه أسوة أمام الغير.

ومضاعفة العذاب لا تعنى الإحراق مرة واحدة فى النار؛ لأن الحق سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام؛ ولذلك أراد الحق سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب.

يقول الحق سبحانه:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ [1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ.. (٥٦) ﴾ [النساء]

فهو عذاب على الدوام.

أو أن العذاب الذى يضاعف له لون آخر، فهناك عذاب للكفر، وهناك عذاب للإفساد.

يقول الحق سبحانه:

﴿ .. زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾ [النحل]

فالعذاب على الكفر لا يلغى العذاب على المعاصى التى يرتكبها الكافر [2].

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتصُّ للشاة الجلحاء منها [3]، أى: أن الشاة التى لها قرون وتنطح الشاة التى لا قرون لها، فيوم القيامة يتم القصاص

(١) نضج اللحم: لينه وصلاحيته لأن يؤكل. والمراد: احترقت جلودهم.
(٢) لأنه لم يؤمن بالدين الذى يجب أن يؤمن به، لهذا لم ينجُ من العذاب، ويعذب أيضاً لمخالفته لمنهج الله إن كان مؤمناً برسول، أو لم يؤمن بالرسل ولكن كان مخالفاً للفطرة.
(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة. والجلحاء: هى الشاة ذهب شعر مقدم رأسها، وهى هنا بمنزلة الجماء التى لا قرن لها.

منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ(١) وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) ﴾ [هود]

أي : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول ﷺ ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى في الكون ، فكأنهم صُمٌّ عُمْيٌ ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ(٢) .. (٣٨) ﴾ [مريم]

أي : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾

---

(١) السمع : حس الأذن ، ويطلق على الأذن ، وعلى الآذان ، بلفظه لأنه مصدر . وقال تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. (٧) ﴾ [البقرة] أي : ختم على آذانهم فلا تسمع ، والمراد : أنهم يسمعون ولا يفهمون . [القاموس القويم] .

(٢) أسمع بهم وأبصر : فعل تعجب من « سمع » ومن « بصر » أي : ما أدق سمعهم وبصرهم ، وما أعجب شأنهم يوم القيامة ، إذ يرى كل أعماله في الدنيا ، ويسمع كل ما قاله في لحظات ليشهد على نفسه . [القاموس القويم] .

إذن : فهم خسروا أنفسهم ؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً آجلاً زمنه خالد.

وفى هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين.

وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك.

وظلم النفس يعنى أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً آجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَضَلَّ [1] عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾ [هود]

أى : لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

﴿ .. وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [التوبة]

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى بفرض قدرتهم على النصرة ، فتلك الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٢١) ﴾ [هود]

أى : غاب وتاه عنهم.

---

(١) ضل الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ولم يعرف الحق.
والضلال : النسيان والضياع ؛ وضل الشيء : خفى وغاب ، فهو فعل لازم.
وضل المسافر الطريق : لم يعرفه فهو متعد [القاموس القويم - بتصرف]

وقوله سبحانه: ﴿ .. مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾ [هود]

أى: ما كانوا يدَّعونه كذباً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ لَا جَرَمَ[1] أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾

واختلف العلماء فى معنى كلمة ﴿لا جَرَمَ﴾، والمعنى العام حين تسمع كلمة ﴿لا جَرَمَ﴾ أى: حق وثابت، أو لا بد من حصول شىء محدد.

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ..(٦٢) ﴾ [النحل]

أى: حَقَّ وثبت أن لهم النار؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال، وتلك الأعمال مقدمة بين يدى عذابهم، فحين نسمع ﴿لا جَرَمَ﴾ ومعها العمل الذى ارتكبوه، تثق فى أنه يحق على الله - سبحانه - أن يعذبهم.

وقال بعض العلماء[2]: إن معنى: ﴿لا جَرَمَ﴾ حق وثبت.

وقال آخرون[3]: إن معنى ﴿لا جَرَمَ﴾ هو لا بد ولا مفر.

---

(١) لا جرم: لا محالة ولا بد، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا: حَقّا. وهى هنا بمعنى «حقا». وقد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع:
الأول: سورة هود - آية ٢٢ وهى التى بصدد تفسيرها هنا.
الثانى: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾ [النحل].
الثالث: ﴿ ..لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾ [النحل].
الرابع: ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾ [النحل].
الخامس: ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ .. (٤٣) ﴾ [غافر].

(٢) قاله الخليل بن أحمد الفراهيدى، وسيبويه. فـ«لا» و«جرم» عندهما كلمة واحدة، و«أن» عندهما فى موضع رفع. وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٣٨).

(٣) قال المهدوى: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة. وهو قول الفراء أيضاً. ذكره الثعلبى. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٣٨).

والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البُدِّية [1] يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا في مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هي «الجرم» ، والجرم : هو القطع [2] ، ويقال : جرم يده ، أي : قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾ [هود]

أي : لا قَطْع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شيء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد ؛ وهكذا التقى المعنى بـ «لا بد» .

إذن : فساعة تسمع كلمة «لا جرم» ، أي : ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة «الجريمة» مأخوذه من «الجرم» ، وهي قطع ناموس مستقيم ، فحين نقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا ناموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأيُّ جريمة هي قَطْع للمألوف الذي يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال : جرم [3] الشيء أي : اكتسب شرَّه ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال : من الناس من هو «جارم» وهي اسم فاعل من الفعل : «جرم» ، مثل كلمة «كاتب» من الفعل «كتب» و«مجروم عليه» وهي اسم مفعول ، مثلها مثل «مكتوب» .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد في النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة في أن يعذبهم الله بالنار .

---

(١) البد : النصيب من كل شيء . ولا بد منه : لا مفر . [المعجم الوسيط] .

(٢) الجرمة : ما قطع من البسر (التمر) . [المعجم الوسيط] .

(٣) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم أذنب وجنى جناية ، وجرم المال : كسبه من أي وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جرم . قال تعالى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. (٨) ﴾ [المائدة] أي : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل .

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ، بل هى مَنْع للجريمة[1] .

وهكذا تلتقى المعانى كلها ، فحين نقول: ﴿لا جَرَمَ﴾ فذلك يعنى أنه لا جريمة فى الجزاء ؛ لأن الجريمة هى الآثام العظيمة التى ارتكبوها .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..(٤٠)﴾ [الشورى]

وقد سمَّاها الحق سيئة ؛ لأنها تسىء إلى المجتمع ، أو تسىء إلى الفرد نفسه .

ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦)﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هناك معانى متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : ﴿لا جَرَمَ﴾ ، فهى تعنى : لا قطع لقول الله فى أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حق وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾ [هود]

وكلمة (الأخسرون) جمع «أخسر»[2] وهى أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة .

---

(١) ولذلك قال سبحانه : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢١١) : « إذا علم القاتل أنه يُقتل انكف عن صنيعه ، فكان فى ذلك حياة للنفوس . قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقْتَل» .

(٢) أخسر : صيغة أفعل التفضيل ، وتفيد المبالغة فى المعنى ، أى : أكثر وأشد خسارة . [راجع : لسان العرب - مادة : خسر]

والخسارة فى أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً [1] لواحد ، كأن يشترى شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب فى الزيادة ، باع الشىء بما ينقص عن قيمته الأصلية.

ومن يفعل ذلك يسمى «خاسر» ، والخسارة فى الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر فى صفقة قد يربح فى صفقة أخرى.

ولنفترض أنه قد خسر فى كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهى فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم [2] بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ [3] ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم عليهم:

﴿ .. أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) ﴾ [الزمر]

---

(١) الجحف والمجاحفة: أخذ الشىء واجترافه. والجحف: شدة الجرف. والإجحاف: الظلم الشديد. [انظر: لسان العرب: مادة جحف].

(٢) أنبأه بالشىء ، ونبأه به: أخبره به وذكر له قصته. والنبأ: الخبر ، أو الخبر ذو الشأن والقصة ذات البال. والإنباء أيضاً: التحديث ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) ﴾ [الحجر]. أى: حدثهم. [القاموس القويم ٢/ ٢٥٠]

(٣) الآية عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطىء وعمله مردود ، فتجدهم يعتقدون أنهم على شىء وأنهم مقبولون محبوبون ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]. [تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٧] بتصرف.

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة .

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقابل لهؤلاء ، وفي ذلك فيض من الإيناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشيء المقابل .

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ (١) لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ (٢) لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهذا التقابل يعطي بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار .

ويأتي الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ (٣) إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٣) ﴾

---

(١) الأبرار : جمع بَرّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان . والبار : هو الذي يبر والديه فيحسن إليهما . [لسان العرب – مادة : برر] بتصرف .

(٢) الفجار : جمع فاجر ، وهو المنبعث في المعاصي ، غير مكترث ولا مبال ، وهو أيضاً من بالغ في العصيان وجهر به . [القاموس القويم ٢/ ٧٣] بتصرف .

(٣) أخبتوا إلى ربهم : تواضعوا وخشعوا وساروا في الطريق المستقيم المطمئن الواسع . وقال تعالى : ﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾ [الحج] . أي : الخاشعين . والخبت : المكان الواسع المطمئن من الأرض . [القاموس القويم].

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدى [1] ، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب ؛ لأن فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا [2] وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى : اتبعتم ظاهر الإسلام .

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقَّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله عز وجل ؛ لكن العمل الذى يقوم به الإنسان هو الفيصل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم .

فالذى يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدى العمل بتكاسل واتِّباع لظواهر الدين ، فهو المسلم ، وكلاهما يختلف عن المنافق الذى يدَّعى الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يمكر ويبيِّت [3] العداء للإسلام الذى لا يؤمن به .

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبى ﷺ .

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عقد) : «اعتقد كذا بقلبه ، وليس له معقود ، أى : عقد رأى . وفى الحديث : أن رجلاً كان يبايع وفى عقدته ضعف ، أى : فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه» . فالإيمان أمر يعتقده القلب .

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذى لا يداخله شك بالأمور الغيبية من إيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل مما لا يراه الناس ، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهرى بأحكام الدين من صلاة وصيام وغيرهما وإن لم يكن فى القلب إيمان . فالإيمان وحسنه أمر يعلمه الله من قلب كل عبد .

(٣) بيَّت أمراً : دبَّره فى خفاء ، كأنه دبَّره فى الليل ليخفيه . يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١) ﴾ [النساء] . [القاموس القويم - ١/ ٨٩]

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ..(٢٣) ﴾ [هود]

هذا القول يبيِّن لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع، ولذلك يقال: رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من عبادة أورثت عزاً واستكباراً.

أي: أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار[1].

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أي: خضعوا خشية لله تعالى، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم في ألاَّ يعاقبهم الله، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله.

وأصل الكلمة من «الخبت» وهي الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة، وكذلك الخبت في الإيمان.

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم:

﴿ .. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ [هود]

أي: الملازمون لها، وخلودهم في الجنة يعني أنهم يقيمون في النعيم أبداً، ونعيم الجنة مقيم ودائم، على عكس نعيم الدنيا الذي قد يفوته الإنسان بالموت، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب[2]؛ لأن الإنسان في الدنيا عرضة للأغيار، أما في الآخرة، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم، فهم أهل النعيم المقيم أبداً.

(١) الاستكبار: التعاظم والتجبر على الناس وظلمهم بغير الحق، وصيغة استفعل تشعر بتكلف وادعاء الشيء، فالمستكبر يدعي أو يظن في نفسه أنه كبير.
(٢) السلب: هو سلب النعمة من الإنسان.